يـــوم بـــوم ...

للكاتب الفرنسي جولز كلاريتيه

بقلم الأديب محمد عبد الفتاح

كان الطفل راقداً كالخيال على فراشه الأبيض لا يستطيع حراكاً ، وكانت عيناه الجامدتان ترنوان إلى ما أمامهما تتجلى فيهما علائم المرض والإعياء ، وكأنما يرى بهما مالا يراه الأصحاء

وجثت أمه بجوار السرير تبذل جهوداً جبارة لترد دموعها المنبجسة السخينة ، وقد لاحظت تقدم المرض القاتل يبدو على وجهه المصفر النحيل . وأبوه — وهو عامل قوى الجسم مكتنز العضلات — كان يجهد ما وسعه الجهد ليمنع الدمع السخين الذى قرح جفونه الحمراء وحرق أهدابه الكليلة ، من الانسكاب على خديه الغائرين

وترجّل النهار صافياً جميلاً فى إصباح من أصابيح يونية الساحرة ، واطمأن نوره الحى الدافىء فى تلك الغرفة الضيقة الواقعة فى شارع «دى أبيس» حيث يرقد فرانسوا الصغير بين جاك ليجران ، ومادلين ليجران يغالب سكرات ، الموت ويصارع نزع الفناء

كان فى السابعة من عمره وكان منذ ثلاثة أسابيع فحسب ، قوياً سليماً ، مفعماً بالجمال والصحة ؛ بيد أنه أصيب بحمى عنيفة ، وأتوا به ذات مساء من مدرسته برأس ثقيل وبدن ملتهبتين . وقد لازم فراشه منذ ذلك الحين . وحينما كان يرى حذاءه الصغير النظيف فى ركن الغرفة ، كان يهذى بقوله :

— الآن أبعدوا هذا الحذاء ، حذاء فرانسوا الصغير ، سوف لا يرتديه فرانسوا الصغير . سوف لايذهب فرانسوا الصغير إلى المدرسة بعد الآن ، لن يذهب أبداً ... أبداً

فكان قلب أبيه يتصدع أسى وحزناً ويصيح به فى صوت متهدج : «صه أيها الصغير صه!» وتخفى أمه وجهها المصفر الباهت ، ورأسها الذهبى اللامع فى وسادته لتمنع صغيرها المفدى من أن يسمع نشيجها وبكاءها

ولم يهذ الصبى فى ليلته تلك ؛ ولكن أظهر الطبيب بعد يومين قلقاً كبيراً لما رآه من علائم الفناء فى وجهه ، كأن الطفل ، وما زال فى السابعة من عمره ، لا يحس أية رغبة فى العيش . كان منهوكاً سقيماً ، صامتاً حزيناً ، لا يتحرك من كل بدنه العليل سوى وجهه ، يحركه ذات اليمين وذات الشمال . وذوت الابتسامة من شفتيه الصفراوين وراحت عيناه المطفأتان تبحثان عن ... عن ... لا يدرى أحد عماذا . قالت مادلين :

— إخال أن عينيه تتطلعان إلى السماء ... إلى العالم الآخر

وذهبت محاولاتهما سدى فى حمله على تناول بعض الشاى أو قليل من الشراب ، فقد أبى أن يأخذ أى شىء

— أما تريد شيئاً يا فرانسوا ؟

— كلا ، لا أريد أى شىء

وهنا قال الطبيب :

— يجب إنقاذه مما هو فيه ... من ذلك الذهول الذى يشمله . إنكما أبواه وتعرفانه ولا ريب حق المعرفة . حاولا أن تخلقا ما يبث الحياة فى بدنه السقيم المضنى ، إن هذا هو الدواء الوحيد لإرجاع هذا الروح الذى يناضل للانطلاق إلى السماء .

ثم ذهب الطبيب قائلا :

« حاولا »

أجل ولا ريب ، إنهما يعرفان عزيزهما فرانسوا حق المعرفة ، يعرفان كم يحب التنزه فى الريف كل أحد ، وكم يفرح ويبتهج حين يحمله أبوه بعد عودته من عمله ، ويبيده طاقة من الورود الناضرة الفواحة إلى حدائق الإليزيه ليرى بونس وجودى وهما يلعبان معاً بين أولاد السراة والأشراف . وكان أبوه قد ابتاع له دمى وألاعيب كثيرة ، فأخرجها كلها من أماكنها ووضعها إلى جانب الطفل على السرير ، وجعلها ترقص وتسير على مرأى منه ، وأخذ يحاول بشق النفس أن يضحك الطفل . قال :

— انظر ! ها هى ذى حرب ضروس سيتقد أوارها «بانج بوم» وها هو ذا القائد العام . ولقد رأينا قائداً فى غابة بولونيا ذات مساء . ألا تذكر ؟ وسأبتاع لك قائداً حقيقياً بثيابه الرسمية إذا أصبحت ولداً لطيفاً وشربت « شايَكَ » أتحب ذلك ؟ خبّرنى ... قائد ؟

فتحشرج صوت الصبى من وطأة الحمى وهو يقول :

— كلا

— إذن هل تحب أن آتيك بمسدس ، تماثيل من الرخام ، قوس ونشاب ؟

— كلا . فسألته أمه :

— ولكن أليس هناك شىء تريده يا حبيبى ؟ لماذا ؟ لقد كنت تحب أشياء كثيرة ... قل لى أنا قل لأمك حبيبتك

ثم وضعت رأسها على وسادته وأدنت فمها المرتجف من أذنه وراحت تهمس له كأنها تنقل إليه سراً . هنالك رنا الطفل إلى أمه وأبيه ، وهب جالساً فجأة وقال بلهجة الآمر :

— « بوم . بوم »

نظرت مادلين المسكينة إلى زوجها فى يأس شديد ، ماذا قال الصغير ؟ هل عاد يهذى ثانية ؟ هل عاوده الهذيان الرهيب ؟

بوم . بوم !

لم تفهم ، وخشيت على ابنها من هذه الكلمات التى يرددها فى عناد وإصرار

— أجل ، بوم . بوم . بوم . بوم . بوم . بوم أريد « بوم . بوم »

ولكن أسارير الرجل الجامدة انبسطت فى ابتسامة أضاءت وجهه الشاحب الممتقع ، ابتسامة تنبئ بالفرح ، ابتسامة المتهم الذى يسمع الحكم ببراءته

بوم . بوم . إنه يذكر يوم عيد الفصح الذى أخذ فيه فرانسوا إلى الملعب . إنه يذكر صيحات الفرح التى كانت تعلو من فم فرانسوا حينما رأى المهرج ، المهرج الأنيق بثوبه الموشى « بالترتر » المطرز على صدره فراشة كبيرة ، أثناء رقصه على

المسرح ، وفى أثناء سيره على أطرافه الأربعة وقد امتطى ظهره قزم ظريف مجان ، وقد علت ضحكاته حينما رآه ينتصب قائماً ويطوح برجله إلى أعلى ارتفاع ممكن ، ثم وهو يلقى بقبعات الفلين فى الهواء الواحدة تلو الأخرى حتى كونت شكلا هرمياً بديعاً ، وفى أثناء كل هذه الحركات كان المهرج يبتسم ابتسامته الفاتنة ويكرر نفس الكلمة ترافقه فرقة الموسيقى « بوم . بوم . بوم . بوم » وفى كل مرة كان الملعب يضج بالضحك وتملو معه ضحكات فرانسوا المرحة الجذلة ... بوم . بوم . إن هذا هو بوم . بوم . إنه المهرج الذى يود فرانسوا رؤيته ، والذى لا يستطيع فرانسوا أن يراه الآن وهو هكذا مريض طريح الفراش

وفى المساء عاد جاك ليجران بعد أن ابتاع دمية على هيئة مهرج مغطى (ثوبه بالترتر) وقد دفع فيه ثمناً كبيراً ، أجر أربعة أيام كاملة من أيام عمله . كان على استعداد أن يدفع أجر ثلاثين يوماً ، بل أجر العام كله ما دام ذلك يدخل الفرح والسرور على قلب صغيره المفدى .

ورنا الطفل إلى الدمية وهى تبرق على الفراش الأبيض برهة قصيرة ثم قال فى حزن :

— إنه ليس بوم بوم . أود لو أرى بوم بوم

آه ... ! ليته يستطيع أن يحمله بفراشه ويذهب به إلى الملعب فيريه المهرج يلعب تحت الأضواء الباهرة ويقول له : أنظر ... وهنا التمع فى ذهنه خاطر سانح أمل من ورائه خيراً ... ذهب إلى السيرك وسأل عن عنوان المهرج ، وإذ أخبروه عنه اتخذ سبيله إليه قدماً

وكانت ركبتاه ترتعدان فى عنف وهو يصعد السلم إلى شقة الفنان فى حى مونمارتر . ولقد كلفه الذهاب إلى هناك شجاعة فائقة ومجهوداً كبيراً . إن المهرجين لا يأبون الذهاب إلى بيوت العظماء لإضحاكهم وتسليتهم ... ولعل المهرج ... آه ! — بأي ثمن يطلب — يقبل أن يذهب معه ويحيى فرانسوا ... لا بأس . ماذا تراه قد حدث له فى بيت بوم بوم ؟

ولم يكن ثمة بوم بوم ؛ بل مسيو مورين فى غرفة أنيقة ، فيها كتب قيمة وتصاوير نفيسة ، وجميع أدوات الفن

ونظر جاك إلى الرجل فعرف فيه المهرج . وأخذ ينظر يميناً وشمالاً وقبعته الرخيصة فى يده . وانتظر الرجل الآخر من زائره حديثاً . فاعتذر جاك لحضوره وقال : إنه ليس له حق المجىء فيما جاء له ، وما كان له أن يأتى ألبتة ـ مع الأسف الشديد ـ ولكن مع كل هذا ... « إنه كل أملى فى الحياة يا سيدى ، وهو جد لطيف جميل ، متوقد الذكاء ، أول فرقته دائماً فى كل العلوم ما خلا الحساب الذى لا يسيغه ولا يفهمه ، وهو إلى كل ذلك خيالى ... أجل خيالى النزعة .. والدليل على ذلك .. أجل .. الدليل ... » وتلعثم جاك وتردد ، غير أنه تمالك نفسه واستعاد جنانه وقال :

— الدليل أنه يود أن يراك ... إنه لا يفكر فى شىء سواك . وإنك هناك أمامه كنجم يبنى الصعود إليه فلا يستطيع فيديم التطلع فيه

وما أن انتهى الرجل حتى كان وجهه قد تجرد من الدم وأصبح شاحباً ممتقعاً ، وتصبب العرق البارد

من جبينه ... ولم يجسر أن ينظر إلى المهرج الذى مضى يرنو إلى العامل بعينين لا تحولان ولا تطرفان وما الذى سيقوله المهرج يا ترى ؟ هل سيطرده ، أم يعده مجنوناً ؟ ولكن بوم بوم سأله :

— أين تقيم ؟

— أوه ! على مقربة من هنا ... فى شارع دى أبيس ...

— هلم ، هل يود صغيرك أن يرى بوم بوم ؟

حسن جداً . . سوف يرى بوم بوم .

ولما فتح الباب للمهرج ، صرخ جاك فرحاً مبتهجاً يقول لابنه :

— فرانسوا ، أيها الشقى ! إنك ذو حظ عظيم ها هو ذا ... ها هو ذا بوم بوم ...

فعلت وجه الصبى ابتسامة الغبطة والفرح ... واستعان بذراع أمه على الجلوس فى فراشه ، وأدار رأسه نحو القادمين ، وظل لحظات يحاول أن يعرف الرجل الذى بجوار أبيه ، والذى يبتسم له أرق ابتسام ولكنه لم يعرفه ... بوم بوم ، إنه ليس بوم بوم ... وعاد الطفل ورقد فى الفراش حزيناً مبتئساً ... رقد وعيناه الزرقاوان الواسعتان تنعمان النظر فى الحائط تتمثلان الترتر ، والفراشة التى فى ثوب المهرج الذى يحبه كما يحب الوثنى صنمه ...

وقال الصبى ... لا فى صوت خشن ... بل حزين :

— كلا ، إنه ليس بوم بوم !

نظر المهرج إلى الطفل السقيم فى حزن صادق ، ثم استدار نحو الزوجين الجازعين وقال :

— إنه على حق ... إنه ليس بوم بوم ... ثم غادرهم وانصرف .

— آه ! سوف لا أرى بوم بوم بعد الآن ... سوف لا أرى بوم بوم ثانية !

قال الطفل ذلك ثم بدأ يحادث الملائكة : ربما كان بوم بوم هناك ، هناك حيث سيذهب فرانسوا الآن ... الآن توا !

وانفتح الباب فجأة بعد نصف ساعة من ذلك ، وظهر المهرج بثوبه الأسود الفضفاض الموشى (بالترتر) والمطرز بفراشة كبيرة على الصدر وأخرى على الظهر . تبدّى وعلى رأسه قبعته المضحكة ، وعلى وجهه المصبوغ بالمساحيق ابتسامة كبيرة واسعة امتدت حتى أذنيه . ظهر بوم بوم ، بوم بوم الحقيقى ، بوم بوم الملعب ، بوم بوم كل الناس ، بوم بوم فرانسوا الصغير ... بوم بوم

وتحرك الصغير فى فراشه فرحاً ، مسروراً ، ضاحكاً ، صارخاً ، سعيداً ، ناجياً مما فيه من داء وسقم . صفق بيديه وصاح :

— إنه بوم بوم ... إنه بوم بوم هذه المرة ، ها هو ذا بوم بوم « هو رآه » بوم بوم ، كيف أنت يا بوم بوم ؟

وحينما أقبل الطبيب فى ذلك اليوم بعينه ألفى بجوار سرير المريض الصغير مهرجاً بوجه ملطخ بالمساحيق والأصباغ . ورأى الطفل يضحك جذلان مسروراً ، وينظر إلى المهرج وهو يضع فى الدواء قطعة من السكر ويقول :

— أنت تعلم يا فرانسوا أنك إذا لم تشرب فسوف لا يأتى بوم بوم ثانية

وأطاع الطفل

— أليس سائغاً ؟

— سائغ جداً . شكراً يابوم بوم . وقال المهرج :

— سيدى الطبيب ! لا تكن غيوراً . ولكنى أعتقد أن حركاتى المضحكة كان لها نفس الأثر الذى لدوائك ...

وبكى الزوجان ، ولكنه بكاء الفرح الكبير

وإلى أن بارح فرانسوا فراش المرض كانت هناك سيارة من مونمارتر تقف كل يوم بباب مثوى العامل فى شارع دى أبيس ، ويخرج منها رجل يرتدى معطفاً واسعاً كبيراً وقد رفع بنيقته ، وتحت المعطف يرتدى ملابس الملعب الموشاة (بالترتر) المطرزة بالفراشتين الصفراوين الكبيرتين

وقال جاك ليجران للسيد المهرج حينما جلس الطفل لأول مرة

— بكم أنا مدين لك يا سيدى ؟ يجب أن تنال أجرك على ذلك

فمد المهرج يديه الغليظتين إلى كل من الرجل وزوجه كما يفعل بطل عظيم وقال :

— كل ما أطلب هو أن تصافحانى بحرارة

ثم أضاف بعد إذ طبع قبلتين على خدى الطفل اللذين توردا من جديد :

— ثم أن تسمحا لى أن أضيف إلى بطاقتى :

« بوم بوم المهرج ، والطبيب النفسى لفرانسوا الصغير »

(القاهرة) محمد عبد الفتاح

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالأثمان الآتية

ص

٥٠ السنة الأولى فى مجلد واحد

٧٠ كل من السنوات الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة فى مجلدين

وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش فى الداخل وعشرة قروش فى السودان وعشرون قرشاً فى الخارج عن كل مجلد

المجموعة الاولى للرواية

١٥٣٦ صفحة

فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فتى العصر لموسيه، والأوذيسة لهوميروس، ومذكرات نائب فى الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعة ومنقولة .

الثمن ٣٤ قرشاً مجلدة فى جزئين

و ٢٤ قرشاً بدون تجليد

خلاف أجرة البريد

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبتديان — عابدين)